ثورة .. موتسارت .. وأمريكي !

بقلم نجيب المانع

في مقهى « اولد فينا » وقد اخذ المساء النمساوي ينتشر على الجدران والارصفة مشيرا الى ان لكل مدينة ليلها وقمرها وشمسها تتشكل بما فيها من تاريخ وصخور وما يكسو ارضها من نبات ورمال والسماء مرآة الارض ، فما بقية شعاع الشمس الغاربة على ذوائب كاتدرائية سان شتيفان العليا الا لون من الوان الكاتدرائية لا تكاد تكون له صلة بالشمس ، والمطر حين يتنزل على مدينة نبيلة ،انما هو زخات من العطر تحمل معها ندى الغابات المحيطة وشذاها ، وكما لا يبقى من العطر سوى بهجته ، فان المطر لا يخزن هناك نتنا في شقوق الارض السوداء .

وقد كنت اخذت حاجتي من صحف اليوم الانكليزية التي ترد الى فينا مساء بالطائرة لاقرأ فيها اخبار العراق وقد مر على مولده اربعة ايام وكنت افعل ذلك منذ بدء الثورة .

اذن لقد زحف رجال وبايديهم حديد غضبهم يفتحون بيوتا شيدت من قلوب الاطفال وارتفعت ضجة جهيرة كبحر من غناء لتسكت آبادا كثيفة من صمت رصاصي وتختنق ضحكات كانت قسوتها الساخرة تخيف العائدين من عمل نهارهم الاشعث ، وتزفهم الى فراشهم المندوف بالجوع . واخذت احلم بارضي التي كانت شمس عاتيه تجفف احلامها وكانت مخالب وحشية تنديها بعد ذلك بالدماء . فلقد آن للجراح الحارة تبردها الدموع ان تبرأ، وللحنين الذي كان صبرا ضخما يذروه اليأس والقنوط حفنة حفنة أن يبرعم اليوم الياسمين .

اذن سيكون لمن يطلبون خبزا ان لا يلقموا الحجارة ، ولمن يطلبون عملا ان لا يحملوا قطعا من الجبال يجزون على آثارها في ظهورهم سياطا على الظهور .

افيكون لتلك السواعد وهي ذهب اسمر ان تصنع بينها سبائك من صداقة ومسرة ؟

واخذت أحلم بالانسان في بلدي وقد اصبح جميلا مقدسا واحلم بالطيبة والثقة وهي حناجر حريرية يخرج الناس اصواتهم منها بسامين زالت عن جباههم اخاديد الشك والكراهية والكذب والقبح .

وتذكرت في نشوة تلك الاخبار أولئك الذين عرفتهم والذين ماتوا قبل ان يروا هذا اليوم واحسست تجاههم بحزن جديد ، فلقد كان يلون احلامهم اليه حنين .

كما تذكرت الذين عملوا من اجل هذا اليوم باذلين لمطلعه كل شيء حتى ارواحهم ، وكان من العدل ان يسعدوا به ، فهم جديرون بهذا الفرح ، واحست تجاههم بحزن جديد .

ودارت برأسي ابيات بول ايلوار يرثى بها غابرييل بيري الذي اعدمه النازيون :

قتل انسان ما كان عنده من دفاع
سوى يديه المفتوحتين للحياه
قتل انسان ما كان يسير
الا في طرق تكره لعلعلة الرصاص .

الى قوله :

هناك كلمات تحيى
وهي كلمات البراءه
ككلمة دفء وكلمة ثقه
وحب وعدل وكلمه حريه
وكلمه طفل وكلمة رقه
وبعض اسماء الازهار والثمار
وكلمة شجاعة وكلمة اكتشاف
وكلمة اخ وكلمة رفيق
وبعض اسماء البلدان والقرى
وبعض اسماء النساء والاصدقاء
فلنضف اليها بيري
بيري الذي مات لكي نحيا »

لقد قتلوا بعد ان حمل كل منهم صليبه على ظهره وركزه في الميادين ومنعطفات الطرق ، وقد آن للناس الا يخجلوا حين يمرون بمواضع الصلبان ، فما من اجل الخجل قتلوا ، بل قتلوا من اجل فرح هذا اليوم . ولقد آن للخجل ان يكون اعصارا من كبرياء .

والعدل ؟ لسوف يعيد الانسان في بلدي اكتشاف هذه الكلمة الطيبة ولعله ان ينظر الى ظلمات هذا الكون متسلحا بخوفه من قتل البراءة . وربما كان هذا العالم المدوخ في كبره لا يجتاز الا بخطوات صغار كخطوات الاطفال . ولئن كان العدل مصباحا يستضاء به في هذه الظلمات فالاجدر الا يوجه الى أمام فيقدم الرؤية بل يوضع بازاء ما يرى ليرى بشكل اكثر استيعابا واحاطة ، فان النور القوي الموجه الى الامام باتجاه واحد يعدم الظلال ، ويضع كل شيء في مدى بصري واحد ومجال حسي محدد .

وقلت في نفسي : لعلنا ان نكون من اليقظة في انفسنا بحيث لا تعشو عيوننا ولو لحظة واحدة عن النظر في وجه البراءة فتنقلب علينا دهرا من ظلام !

ان علينا ان نرمي بالحرية بعيدا بعيدا ، فذلك هو السبيل الوحيد لاحتضانها بكل اليدين .

انتوهب الحرية والبراءة هو امتلاكهما الكامل، وامتلاكهما في حرص وورع سبيل الى تبديدهما . فما اشد ولع الحرية بالتطواف في الهواء الطلق ، وما اشد ضمورها وهزالها حين تحتجز في بيت ذي جدران !

وكنت اقرأ واحلم في امن عميق ما كان يكدره سوى «الجيوك بوكس» يرتعش باغنية تجارية «لا استطيع النوم» فما هذا الشخير اذن ان لم تكن نائما ؟. ومرتاد اخر يدير اغنية « ديانا » ، لا ديانا الهة القمر الحانية على الشباب ، بل ديانا اخرى : هي اخر نوبه ارتجاف من نوبات الحمى الامريكية المعدية ، وعاصفة رملية لافحة جديدة تهب من صحراء القلب الامريكي المجدب .

واذ كنت في شغل عن هذه الترهات غير منتظر ان تهبني هذه الآله شيئا يوازي جمال الاخبار التي كنت التهمها اذا بالجيوك بوكس يفصح عن اغنية موتسارت (دوفيه سونو Dove Sono) وخمنت فيها صوت اليزابيت شفارتزكويف الاثيري ، وهو احد الاشياء القليلة التي تستطيع ان تفخر السماء بمنحها للارض . وكانت تطرز ذلك المساء بهذه الاغنية الداكنة في اوبرا « زواج الفيغارو » المشعة الملتمعه ، وحين يضع موتسارت العتمة بازاء الاشراق فان عتمته تكتسب اشراقا مضاعفا . وبعد ذلك من الذي يستطيع ان يرسم الظلال ان لم يكن قادرا على الاضاءة ؟

ووجدت بين ذلك الغناء الداكن في اطاره المشع توازيا مع احساسي خلال فرحي الغامر بالحزن على اولئك الذين لم يشهدوا هذا اليوم . وكما ينتصر الفرح في الموسيقى ، فقد تملكتني النشوة والغبطة . غير اني كنت في غبطتي وحيدا ، وادركت للمرة الاولى مرارة الغربة في فرح الانسان وحده .

وعجبت لتلك الآلة الخرساء تتحدث هذا الحديث الورود، والتفت فرأيت شابا منحنيا يصغي على مقربة من « الجيوك بوكس » فعرفت فيه الذي اطلق هذه الحزمة من النور ، وما ان نظرت اليه حتى احسست تجاهه بصداقة لا تاريخ لها ، وهي الى ذلك مديدة بعيدة . ثم قام بعد انتهاء الاغنية وادار اغنية (بورجي امور) من نفس الاوبرا المعجزة. وحين انتهت هذه قمت انا اتطلع في « الجيوك بوكس » لعل في هذه الآلة التي تكاد تكون مليئة بالفراغ شيئا جديا آخر، فوجدت ماريو ديلموناكو يغني نهاية اوبرا عطيل لفيردي فوضعت العملة المرادة في الموضوع المطلوب، ولم اكن اعرف على اي الازرار لمتعددة اضغط ، فاستعنت بصديقي المحتمل (وكل محب لموتسارت ككل محب للحرية صديق محتمل) وكان هذا سببا لتعارفنا .

عرفت انه امريكي تخرج من هارفارد في الادب الانكليزي ودرس الغناء على سبيل الهواية . وتحدثنا عن العراق والعرب فكان كما توقعت من نظافة ذوقه ذا تفكير نظيف.

كان احساسه بالانسان وقيمته احساس رجل تملك البلاغة وتجاوزها ، فما تسمع منه كلمة واحدة الا تشكلت عندك جملة ، ولا جملة منه الا كتبت في ذهنك صفحات ، فكأنه يوصل اليك وعيه كله بمجرد النظرة والبسمة وعبارة الاندهاش . وكان لادراكه للعظمة الطيبة في الناس كأنه يصافح خضما من اياد لا ترى ، ويضحك مع الاف الوجوه عبر المكان ، كل ذلك دون ان يفقد رزانة الرجل الحريص على الانسان ، البخيل عليه بالموت باي شكل ، فلا ترى عنده مرح العابث حين يجد متعته في رقص نزق فوق القبور ، حتى اذا كانت تلك القبور البلاطات اللامعة لمرقص انيق . وكأني بمجرد لقائه اضفت الى حياتي حيوات ، بل كان لقاؤه برهانا على ان حياة واحدة لا تكفي علي هذه الارض ، وان الانسان الواحد يستطيع بل يتعين عليه ان يكثر حتى يصبح عديدا من الناس ، وان الانسان لا يمل حياته الواحدة الا اذا ظلت مفردة ولم تتضاعف وتزدهر .

كان مدركا لقضايا الشعوب : تهمه حريتها وكرامتها وخبزها بحيث جعل عجبي منه يتسم بشيء من قلة الكياسة ، اذ سألته مستغربا : أأنت امريكي حقا ؟

فقال مبتسما : يبدو أنك لا تصدق ، فهل رأيت امريكيين كثيرين خيبوا ظنك ؟

فقلت : لقد صادفت بعض الامريكيين ، غير اني مهما حاولت ان افتح مغاليق نفوسهم وجدتهم معتصمين بجهلهم وانانيتهم وكسلهم الروحي.

فقال : في الحق أني اخشى هؤلاء الامريكيين الذين ذكرتهم ، واهرب من رؤيتهم وليس هناك في نظري اقبح

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

تلفون ٢٧٦٨٢ ص.ب ٦٥٦

الخندق الغميق	الدكتور سهيل ادريس
معركة المصير الوحد	ميشال عفلق
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين	تأليف الدكتور يوسف حتي ترجمة جورج حداد وعبد المنعم رافق
معالم الفكر العربي في العصر الوسيط	الدكتور كمال اليازجي
تاريخ مختصر الدول	ابن العبري
على دروب الجمال	ميخائيل معوض
تاريخ افتتاح الاندلس	دار النشر للجامعيين
تاريخ الجنس العربي	محمد عزة دروزه
علي وحقوق الانسان	جورج جرداق
ثائر في ديجور	يحيي غانم

من السائح الامريكي في اوروبا وعلى صدره آلة التصوير يصور بها كل شيء يجعل « البوماته » مستودع ذكريات ميتة . وحين يعود الى أمريكا وتهد مناهج التلفزيون اعصابه يخرج البوماته ليفخر امام من لم يروا اوروبا بانه احتضن التاريخ وارخ الحضارة : هذا هو قصر فرساي . هذا انا امام تمثال غوته . اخذت هذه الصورة امام كنيسة سان جيرمان وهي كنيسة قديمة جدا ، فهو يكره سيارة السنة الماضية ، ولكن فيه جوعا صبيانيا لكل ما هو قديم . يحاول الاميركي ان يجد ذاته في بطاقة السفر التي يحملها فهي تذكرته الى السماء من غير ان يعلم اين هي وماذا تعني ، اذ يكفيه القدم فيها . الم تسمع بذلك الامريكي الذي أرسل برقية الى المشرفين على مهرجان فاغنر في بايرويت هذا العام قائلا : ارجو الغاء حجز محلي نظرا للاضطرابات ، فاجابوه ان المسافة بين بيروت وبايرويت ثلاثة الاف ميل باجابهم : انا قادم اذن .

تصور رجلا يحجز مقعده منذ الشتاء في مكان لا يدري اين هو ! لقد وجد اسمه في نشرات السياحة واعلاناتها التي تفرض على بصره وعلى سمعه الاف المرات حتى استسلم لندائها المنوم ، فاذا عاد الى اميركا بعد ان احترق ضجرا تحت وطأة فاغنر فانه سيعود وهو في غاية الزهو : الم ير اوبرات فاغنر الطويلة ؟ الم تحدث عنده المغص الضروري لكل رجل امريكي كي يصبح مواطنا صالحا ؟ اما اذا كان حسن الحظ واصبح يشكو قرحة في المعدة ، فقد ارتفع درجتين فوق المواطن الصالح : لقد امتلك مؤهلات الترشيح للكونغرس او لادارة نادي البيسبول في ولايته !

قلت : من عجب اني لم أجد امريكيا معقولا هو في الوقت ذاته يحترم امريكا . فالادباء الامريكان الممتازون هم دون تعلقات امريكية ، أنهم دائما في منفى روحي عن امريكا ، خذ مثلا همنجواي وهنري جيمس وميلفيل واليوت وباوند وهنري ميلر وارثر ميلر وحتى فولكنر فان منفاه في الماضي .

ولا يسعد كل السعادة بكونه امريكيا الا الذي لا يستحق الاحترام : مكارثي ، تافت ، مؤلفو القصص البوليسية ، الفيس بريسلي ، هاري جيمس ، مخرجو الافلام الراقصة الملونة ،واصحاب تايم ونيوزويك واصحاب المجلات السادية وكبار الملاكمين .

قال : نعم ، ينفرد بهذه العقدة الامريكان وحدهم . اما ان تكون امريكيا صرفا وتعيش حياة نباتية ، دون ان يكون فيها ما للنبات من تواضع وتلقائية ، وامـا ان تتجنب امريكا لتحب العالم والحضارة . ارجو الا أعطيك صورة عن نفسي باني مجرد ماسوكي يلذ له ان يلعن نفسه ويحطم جذوره واصوله ، فالامر يتعدى هذا التحديد النفسي البسيط . انه في الحقيقة يتعلق بمحاولة الامريكي لاكتشاف مكانه في هذا العالم ولن يكتشف مكانه مطلقا ان ظن أنه هو المركز . وكما كان رجل القرون الوسطى يظن ان الارض مركز الكون والانسان ، مركز العالم ومن اجله خلق الله الارض والسماء ، فان امريكي القرون الوسطى الحديثة يحاول أن يؤكد ان امريكا هي مركز الثقل الكوني وان ما يسميه طريقة الحياة الامريكية The Ameuicon way of Life هي الجنة وانه آدمها ومعبودة السينما حواؤه.

وتستطيع ان تستثني والت ويتمان ، فقد كان حبه لامريكا والارض الامريكية حبا للانسانية . ولكن ويتمان من ابناء القرن التاسع عشر الخائبين . لقد كان يظن خيرا بامكانيات امريكا ، فما ان تحققت حتى ظهر وجهها الكريه . لم يعش ويتمان ليشاهد قبح ناطحات السحاب ولو انه رآها لما تحدث عن الضخامة والسعة والامتداد والامتلاء بهذا الحنين الى مجهول لم يدر أي وباء هو .

الرجل الامريكي على عكس انتايوس في الاساطير الاغريقية ، يزداد ضعفا كلما ازداد لصوقا بارضه ، وعلى الامريكي ان يتواضع ولا يظن انه هو المركز الذي تدور عليه ومن اجله الامور في الكون . والذين ذكرتهم كلهم متواضعون بشكل او بآخر . ولم يفقد الاوروبي على العموم هذا التواضع ، فهو لم يتوهم بعد ان التسهيلات الميكانيكية تستطيع ان تكسبه لحظة السعادة الكامنة في مقطع صغير لباخ ، فهناك تعيش في دوامة تتلقفك سيارة السنة الجديدة لتلقى بك على اثاث الموديل الاخير ، وما تكاد تستريح عليه حتى تضمك مترنحا رقصة الموسم ، آناء كل ذلك تظن انك قاب قوسين او ادنى من السعادة ، وهي سعادة مؤجلة مشروطة بحيازة ما ينقصك ، وسيظل ذلك الشيء ينقصك باستمرار لان الاثاث الجديد لا يكاد يمضي عليه

صدر حديثا

١) قضايا جديدة في ادبنا الحديث

بقلم الدكتور محمد مندور

٢) في ازمة الثقافة المصرية

بقلم رجاء النقاش

دار الآداب ــ بيروت

الزمان الكافي لاصابته بادنى خدش حتى يكون اثاثا قديما في حسبان الموديل الذي بعده . وتعود مع الدوامة من جديد. انها حلقة مفرغة قلقها فارغ،وهو لذلك ممض متعب من الناحية الجسمانية اولا ، ثم ينصرف بعدها الى الناحية النفسية . اما مع باخ فانت امام الغاية والنهاية والكمال والابدية فلا تكون لذلك مؤجلا سعادتك لحظة واحدة ، اذ انك فيها وما دمت فيها فانت لا تعي اهي سعادة او الم ، لانك اجتزت حدود هذه المسميات ووصلت درجة من الاطمئنان والوجد والرضى كفيلة كلها ان تحيل الالم قوة وثراء . امام الكمال يكون الانسان متواضعا ولكنه لا يكون قط وضيعا. اما الامريكي فانه حين لا يستطيع التواضع يظل في مكنته ان يكون وضيعا الى حد الزحف الدودي على الارض . أيزور امريكي باريس دون ان يذهب الي الا نغاليد ليرى قبر نابليون ولكي يحس بالضآلة امام ما يتصوره من عظمة نابليون ومغامراته (فهو النسخة الاوروبية من ملاكم نال اعجابه) ولكن يندر ان يجيء على بال الزائر الذي تلذ له تلك الضعة التقارنية ان يعرج على بعد خطوات من الانفاليد ليزور متحف رودان ، ولو زاره فلن يهمه ما في القاعات ، بل يكتفي بأخذ صورته في الحديقة ، وذلك بان يقف بكل ما يستطيع من بلاهة امريكية امام تمثال « المفكر » فيكون قد حقق صنعتين ذلك اليوم لا غنى له عنهما وسوف يضيفهما الى مجموعاته : لقد احس بالضعة الكافية امام قبر نابليون واحس بالضعة امام تمثال «المفكر» لرودان وهو الذي لم يخطر له ان يفكر في حياته قط اذ ان جريدته اليومية تفكر عنه بانتظام .

***

حدثني كيف ركب مركبا واشتغل فيه خادما كي يصل الى اوروبا ، وان النقود التي لديه لم تكن تكفيه للانتقال من بلد الى بلد ، فكان يستعين على ذلك بالنقل المجاني Hitch Hiking وينتظر خارج المدن من اجل ذلك وكان يقتل وقت الانتظار الطويل في حفظ النوطات التي يحملها ومنها سلسلة اغاني « الطحانة الجميلة » لشوبرت. وقال : « من طول ما انتظرت بين المدن استطعت أن احفظ موسيقى هذه الاغاني عن ظهر قلب .» قال ذلك ببساطة واثقة تبعث على التصديق الفوري ، رغم ان هذه الاغاني الرائعة لا تسهل على غير موسيقي محترف ، فهي لا تشبه في شيء القيء الذي يصبه في الاذان امثال عبد الوهاب في العشرين سنة الاخيرة وفريد الاطرش وعبد الحليم حافظ منذ صرختهما الاولى حين ولدا ، وهو وقف على صعاليك السكارى في الشوارع النتنة .

وكانت الانباء قد وردت بان الاسطول الامريكي السادس قد نزل في لبنان ، وكان الرأي أن يكون اتجاهه نحو العراق، وقلت ان هذا الرجل الذي لا يضمر لي حقدا والذي جمعني معه اجمل شيء في الوجود : موتسارت ، كان يمكن ان يكون واحدا في الاسطول السادس ليحاول اهالة التراب من جديد على الاحداث التي نشرت ، ولجمعني معه اقبح شيء في الوجود : القتل . فما اشد الاستقطاب بين الفن والقتل ! وقلت في نفسي : لقد احسن بابلو كازاس الاسباني عازف الفيولونسيل والمايسترو النبيل حين قرر مؤخرا ان يترك عزلته في قرية براد Prades جنوبي فرنسا ، بعد ان كان انتبذ عن جميع المنتصرين على الفاشستيه في الحرب الاخيرة اذ لم يجهزوا عليها في اسبانيا ـ احسن صنعا في ترك عزلته ليقوم بجولات في العالم قائلا : ان خطر الحرب على الانسانية اشد من خطر الفاشستية في اسبانيا عليها ، وانه سيقوم بنصيبه في نشر السلام حين يجعل الناس يحبون باخ وموتسارت وبيتهوفن ، وهيهات لاحد ان يهرب من حبهم ان صورتهم له يد كازاس الحبيبة ، وهيهات ان يفلت من سلمهم قلب اذا اصغى لكازاس وهو يصلي لهم في عزفه السحري.

وافترقنا وليس يظن لنا ان نلتقي في هذا العالم العريض، وقد ترك صوته المتحفر اصداءه في نفسي،وعدت الى فندقي خلال شوارع فينا وقد ضمها الليل ونقلها من مكانها في الزمان الراهن الى مكان بعيد هو بدوره اصداء ، وتذكرت وانا اسير عازف الكمان الذي رأيته منزويا داخل ممشى جانبي في مخزن هائل للاحذية في ميدان ليستر في لندن . وكان قد كفأ قبعته للصدقة ووضع امامه لافتة تقول « نعزف باخ وموتسارت وبيتهوفن وبرامز ونأسف اذ لن نستطيع عزف الروك اند رول » وقطعة اخرى تقول

ـ البقية على الصفحة ٧٠ ـ

روايات الليالي
النعمان الثالث
ملك العراق
اميل حبشي الأشهر
رواية تاريخية أدبية غرامية
في هذه الرواية
شذوذ ملك لم تعرف
الحيرة ولا العراق في الزمن
الماضي شذوذا أغرب منه .
أعلى مظاهر الكرامة والإباء
اللذين يتصف بهما العربي ..
إجتياك واغتياك
كانا بعيدي الأثر في
التاريخ
....
٤٥٠ صفحة
الثمن ٥٠٠ غ ل
منشورات دار مكتبة الأندلس ـ بيروت

ثورة ومونسارت واميركي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١١ ـ

« اعزف الكمان من اجل النقود كي آكل الخبز واكل كي تكون لي القوة على العزف » وكان المسكين يعزف عزفا كافرا ، غير اني لا اذكر ان اويشتراخ الكبير نفسه استطاع ان يهزني بمثل ما هزني به وهو يعزف محتميا بممشى اكبر مخزن للاحذية في انكلترا والاف الناس يروحون ويجيئون منطلقين الى عشرات السينمات ودور اللهو والرقص المحيطة بهذا الميدان المتصل بميدان بيكاديللي . واحسست بكبرياء هذا المسكين الذي لا بد ان جميع الاوركسترات قد رفضته وهو مع ذلك يتعالى على الروك اند رول .

كانت يداه المعروقتان النحيلتان تشدان على جسر الكمان وقوسها بعصبية حزينة ، وكان بذقنه المنكفيء على حافة الكمان وعينيه المسبلتين وشكله الناحل يشبه احد ناحلي بيكاسو البؤساء في فترته الزرقاء .

كان يعزف احدى كونشرتات باخ وكمانه يتحشرج في المواضع العصية وتنقطع انفاسه كخطيب عيي ، ولكنه كان ككل من تعوزه السيطرة على التكنيك يضفي على ادائه عاطفة شديدة الحدة . وكانت عاطفته مؤلمة جدا اذ يستجير بها عن عزفه الرديء ويتوسل منها ان تشفع له ، وكان كل ما فيه ضعيفا بل كان فشلا كله الا في تلك العاطفة . فلعمري لقد احسست خلالها بوحدته الشنيعة في خضم لندن وفي اكثف ميادينها بالناس . فلو كان في قرية من القرى لكان اسمه البرت ، ولكان الناس يقولون له : « مساء الخير يا البرت ، هل لك في ان تذهب معنا في نزهة بالقارب ؟ البرت ، هل تعلم ان جون سيتزوج غدا ؟ البرت ان مختار القرية مريض فهل نذهب لعيادته ؟ » ولكان واحدا من الناس بشرا سويا . اما في لندن فان عشرين مليون عين لاترى فيه غير مستجد يعزف الكمان قرب اكبر مخزن للاحذية . وحانت مني التفاتة الى حذائه ، فوجدته لا يندرج في اي قاموس تحت كلمة حذاء بازاء الاحذية الفخمة المعروضة على بعد خطوة منه في الفترينات . على أن احذية البؤساء هوياتهم ، فالاحذية الانيقة متشابهة لا لون لها ولا شخصية ولا تاريخ ، وليست تختلف الا الاحذية التي لهثت كثيرا في الطرق وتشردت طويلا في المنعطفات .

كنت وانا اسير في شوارع فينا وحدي في الليل استمع من تلك الابنية العريقة همسات خفية عبر ليلها الطويل وكأني ارى الملك لير يخرج منها وقد لفظته بنتاه القاسيتان واوصدتا بوجهه الابواب . وتساءلت ترى من تكون الان كورديليا ابنته الصغرى ؟ من تلك التي ستقول لذلك الشيخ : هذا بيتي مفتوح لك ولسوف أقوم بين يديك أحنو عليك واطالع وجهك البهي صباح مساء ، انت لست بشيخ وليس الهرم من طباعك ، انما هو مسحة عارضة رانت عليك انك انت الشباب الابدي الخالد . انت اله لا يهرم (١)»

وقلت : ايكون نحن المستضعفين استضعاف كورديليا ان نقوم بدورها المخلص بازاء الحضارة الاوروبية ومنها ولد العالم الحديث كله ؟ نعم عندنا تراثنا الخاص وفيه ما فيه من شخصية وقوة ، ولكن التراث الاوروبي ملك الانسانية كلها ، فهل يسمح للاطفال النزقين ان يمزقوه ؟ وهل يتاح للابناء العاقين ان يدعوه يتلاشى ويندثر باهمالهم ونسيانهم بل وقسوتهم وان الروح الامريكية لمن اقسى بنات هذا المالك لير عليه .

وفي احيان اخرى اتصور الحضارة الاوروبية كالقاعة الكبرى وقد فرغت من الناس وانقضى ما يقدم فيها ، فلست ترى هناك غير صفوف الكراسي الفارغة ولا تسمع الا اصوات الكناسين ترن في ارجائها وهم يتخاطبون عابثين او غاضبين ، وقد كانت القاعة منذ لحظات حية بما فيها من الناس وكان المسرح كائنا متحركا . ولقد اسدل عليه الستار الان كأن ايزولده ما كانت هناك لتطفىء المصباح من على باب القصر مشيرة لتريتان بالقدوم ، وكأنهما ما صدحا باروع حوار منذ ان عرف الانسان الحب .

***

وما هي الحضارة ؟ اهي مجموعة قيم ، ام انجازات في مضامير الابداع الانساني ، ام هي اسلوب في الحياة ، ام هي روح عامة تجمع كل ذلك ؟ وهل يجوز ان تنتقل الحضارة من بيئة لاخرى بعد أن عبرت في الاولى عن امكانياتها ، ام

(١) لا اظنني في حاجة للقول بان هذا الكلام ليس من المأساة الفريدة في بلاغتها ورموزها وجوها .

قريبا :

الثورية
في الفكر السياسي العربي

دراسة علمية سياسية لمفاهيم الثورة والوسائل الثورية في التاريخ العربي منذ القرن السابع حتى الآن .

بقلم الدكتور

حسن صعب

دار الاداب

يكون الانتقال تغييرا جذريا لها واصطباغا بروح البيئة النازحة اليها ؟

وهل تضمحل الحضارة الاوروبية الان باعتبارها روحا استنفدت الطاقة العضوية للكيان الذي حلت فيه ؟ ام تضمحل باعتبارها طورا معينا من اطوار العلاقات الانسانية؟ اني متفائل اعتنق الرأي الاخير ولا يتعلق الاضمحلال فيه الا بالجانب اللااخلاقي من الحضارة الاوروبية ، بل كل حضارة سابقة وهو الجانب القائم على الاستغلال ومايستلزم من حروب هي في نظر الراي الاول عصب الحضارة واسسها وهو رأي اشبنجار . وعلى هذا فان الواجب الخيريةالثرية من الحضارة الاوروبية لن تذوي ، وهي قابلة للتملك في غير بيئتها ، وان الحضارة الجديدة لاول مرة في التاريخ تجعل من السلام قيمتها الاخلاقية الجديدة البناءة . ولقد كان السلام مثالا للمتأملين في الماضي. اما الان ، وابان انتقال الحضارة الاوروبيةالى طورها العالمي،بات السلام مسألة عملية ، بالاضافة لكونه قيمة اخلاقية . ذلك بان وجود العالم بالذات اصبح مرتكزا عليه ، لا وجود امة واحدة .

كل حضارة جاءت كانت اوسع اثرا من التي سبقتها ، والحضارة الاوروبية اوسعها كلها شمولا ، وهي تبثتياراتها المختلفة من قيم وانجازات ابداعية واسلوب في الحياة باتجاهات العالم المختلفة ، وانها لذلك في سبيل ان تنشيء حضارة عالمية بمعنى يختلف عن عالمية الحضارة الرومانية او الاسلامية .

حين اقول بات السلام مسألةعملية وقيما مثالية في آن واحد ، التفت نحو الحضارات السالفة فاجد يوليوس قيصر مثلا يسمي رجلا نبيلا شريفا بانيا وان كان انسانا محاربا ، واجد ان تعلق الاسكندر والخلفاء المسلمين وناپليون وغيرهم بالحروب ما كان يتصل مطلقا بمكانتهم الاخلاقية. وليس على الانسان الا ان يتصفح تاريخ الطبرى أو المسعودي او ابن الاثير او تاريخ بلوتارك (ولست ادعي اني قرأت جانبا كبيرا منها) ليجد ان الذين عدلوا ووفوا وبنوا يوصفون بالفاتحين الغزاة دون ادراك اي تناقض بين الصفات . بل ان كتاب البلاذري « فتوح البلدان » يعلن باسمه عن نفسه وقيمه. على انه لا يجوز لنا ان نفرض قيمنا الاخلاقية المنبثقة من ضرورات حضارتنا الجديدة التي تزدهر في العالم على اولئك الذين كانوا خلصاء لمرحلة من التاريخ تمتد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حين وضع هتلر اكبر متوحش في التاريخ الفصل الاخير لها ، وكان التاريخ في هذه الفترة كالمأساة التي تركز اقسى وامر لحظاتها في خاتمتها وليس بعد المأساة الا ان تتطهر النفوس .

ليست الحضارة الجديدة الا في بدء الطريق ، وعسير علينا ان نحكم مقدما على كل امكانياتها ، ولكننا نستطيع ان ندرك اتجاهاتها الكامنة في الحفاظ على كل ما هو اخلاقي من تاريخ الحضارات اجمع .

وفي هذا الطور فقط يتعذر علينا تعذرا تاما ان نضيف نبلا او شهامة الى اي انسان او فئة او امة تجهز الجيوش لقتل الاخرين . وليس ببعيد ذلك اليوم الذي ينتفي فيه القتل اللامشخص كما حاولت الحضارات السابقة ان تمنع القتل الفردي المشخص .

فاذا كانت الحضارات السابقة حضارات حرب وغلبة ، فان الحضارة العالمية القادمة بفعل ارادة الحياة فحسب محتم عليها ان تكون حضارة سلام . وليس امرا واحدا ان تكون الحضارة حضارة سلام والدين دين سلام ، فالمسيحية دين سلام ولكن الحضارات الاوروبية المسيحية لم تكن غير حضارات حرب تشرق في ثناياها اشراقات سلام لعلها ان تكون احرى ما فيها بالخلود وهي وحدها البرهان على ان الانسان قادر ان يكون بريئا من القتل .

بغداد — **نجيب عبد الرحمن المانع**